

## خاتمة المطاف

وقف امرؤ القيس ينظر في دهشة إلى ذلك الرجل المهيب الواقف أمامه. وأحس رهبة شديدة تعتريه عندما نظر إلى عينيه الصارمتين، وكاد يصرخ صرخة دهشة، لولا أن تمالك نفسه فارتد إلى الوراء رافعاً يديه وهو يبرق عينيه مأخوذاً، فنظر إليه قيصر، وتبسم لما رأى عليه ذلك الاضطراب، وأراد أن يهدئ من روعه فخطبه في صوت رقيق قائلاً: «تقدم أيها الأمير، فقد كان أبوك صديقاً، كان الملك حجر صديقاً لعمي».

فأنس امرؤ القيس بعض الأنس، وزال عنه شيء من الروع، وحل في قلبه شيء من الاطمئنان والأمل، فاستطاع أن يتماسك، وأن يؤدي لقيصر التحية التي طالما سمع من أصحابه الروم أنهم يؤدونها له، فتقدم نحوه حتى بلغ قريباً منه، وركع وثنى ركبته في خشوع حتى لمست الأرض، ومد يده إلى ذيل حلته الأرجوانية فرفعه إلى فمه وقبله، وكان في حركته شيء من الارتباك والتردد جعل قيصر يشعر نحوه رقة ورحمة، فمد يده نحوه مبسوطة يديه، وقال له في عطف: «لقد سمعت اسمك بين من كانوا في دارحنا، وكاد مصيرك يكون مثل مصيرهم التعس. إن داره كانت مأوى للخونة الذين يشاكلونه. ولكني منذ سمعت اسمك أردت أن أراك، ولم أرض بأن يكون مصيرك مثل مصير هؤلاء».

ثم صمت لحظة واستأنف قائلاً: «ألم يكن جديراً بك أن تأتي إلي يا بنى عند أول مقدمك؟».

فأطرق امرؤ القيس خاشعاً ولم يجب، واستمر قيصر يقول: «ولكن لا بأس عليك. لقد كان أبوك أثيراً عند قيصر عمى، المقيم فى النعيم، يوستن، المقبول فى ملكوت السماء، فأردت أن أراك، وقد سرنى أن رأيتك».

فرفع امرؤ القيس رأسه وتحرك ماداً يديه نحو قيصر وقال بالعربية، إذ لم يطاوعه لفظ الروم: «دام ملكك على الدهر، ولا زالت ألويتك خفاقة!».

ولم يفهم قيصر من هذه الألفاظ سوى أنها تحية ودعاء، فابتسم ابتسامة غامضة ثم وجه إليه الخطاب متمهلاً، فقال: «استبقى فى جيش قيصر كما كنت، وتسير مع خادمى الوفى (بلزارىوس) الشجاع، وأظنك لا تكره أن تسير مع هذا القائد الأمين».

فأسرع امرؤ القيس يجيب فى حماسة بلسان يونانى متقطع كان يتصيد فيه الألفاظ ويضعها فى غير مواضعها. فقال: «بل أنا أحد أبنائك الأمناء».

فتبسم قيصر لقوله، ثم يده مبسوطة بالتحية إيذاناً بانصرافه، فأعاد امرؤ القيس الركوع، وقبل ذيل حلته مرة أخرى، وسار عائداً حتى بلغ باب البهو الفسيح؛ وأشار قيصر إلى الضابط الرومى الذى كان واقفاً على بعد، وألقى إليه كلمات ثم صرفه، فخرج مسرعاً حتى دنا من امرئ القيس، وسار وراءه حتى خرجا من القصر،

ثم أشار إليه ليركب عربة كانت فى الانتظار عند الباب واتجها إلى بيت القائد العظيم بلزاريوس، ليلقاه امرؤ القيس كما امر قيصر.

\*\*\*

بعد أيام قليلة من ذلك اليوم كانت جيوش الروم تسير فى أرض آسيا باعدة عن ساحل البحر نحو الشرق يقودها القائد الأعظم (بلزاريوس) قاصدة أرض فارس. وكان امرؤ القيس يسير فى كتيبة مختارة من أبناء الأعيان والأمراء بعضهم من الروم وبعضهم من بلاد الأرمن أو الشام، وقد داخله إحساس جديد عندما رأى نفسه مرة أخرى - بعد طول اضطرابه وتعثره ومعاناة الأقدار له - يسير فى جيش لجب فى عدة تامة وهيئة بارعة الحسن، عائداً إلى محط آماله ليبلغ ثاره ويستعيد ملكه. لقد تبسم له الدهر مرة أخرى، وما أعجب صروف الدهر! وها هى ذى آفاق الشرق تبدو له مقبلة تطلع منها الشمس باسمه كل صباح بالأمل المقرب.

وكانت الأيام التالية تزيده على مرَّها إقبالا ومجداً، فقد أحبه بلزاريوس وقربه واطمأن إلى صحبته، فكان يدينه من مجلسه ويطرب لحديثه؛ ولما عرف ما بينه وبين الطماح بن قيس من العداوة والكره أبعده الطماح إلى فرقة من فرق الساقية، فأصبح امرؤ القيس لا يراه ولا يسمع له ذكراً. وأعجب الجنود بمهارة الأمير العربى فى الركوب والرماية، فكانوا يظهرون له الطاعة التامة والتجلة الظاهرة والتحية الكريمة.

وزادته الأيام فوق كل ذلك شرفاً جديداً لم ينله في دولة الروم إلا من واتاه الحظ الأوفر، فقد بعث إليه قيصر حلة من حرير لم يفز بمثلها إلا كبار الملوك من ولاية أرمينية أو حماة الحدود - حلة حمراء مصبوغة من صبغة فينيقيا الملكية، قد اتخذت خيوطها من أصداف نادرة لا يعرف سرها إلا القليل من غواصي البحر؛ وحملت الحلة إليه مع رسول أفضى إليه مع الهدية بما هو أغلى قيمة وأعلى قدرًا من كل هدية، بتحيات قيصر وامرأة قيصر.

واجتمع الجيش في يوم فرح شامل ليشهد إلياس قيصر العظيم للأمير العربي الكريم، ولم يشعر امرؤ القيس يوماً من قبل في حياته، بزهو يشبهه ما داخله في ذلك اليوم، عندما وضع الرسول الحلة على كتفيه، وسوى كميها على ذراعيه.

وقام امرؤ القيس في حلته الرائعة فاعتلى جواده العربي الرشيق وبهر الأنظار بما أوتى من فروسية وما كان عنده من براعة في فنون الرماية وضروب حركات القتال، بين إعجاب وإكبار وتحية هتاف. وواصل الجيش بعد ذلك سيره نحو الشرق وامرؤ القيس في نشوة شاملة لما بلغ من المجد وما طلع عليه من الآمال، فلم يأبه بما شعر به عقب ذلك الاحتفال المجهد من تعب في جسمه وفتور في أعضائه، ومضى في السير خفيفاً تستحّته نزوات قلبه المستبشر. وتناولت أيام السير على امرئ القيس واشتدت عليه طأته وتزايد به ذلك التعب الطارئ الذي أحسّه عقب يوم الاحتفال

بلبسه الحلة، واضطراب نومه وأصابته رجفة كانت تزوره لماما فتدك جسمه وتدق عظمه، حتى تفارقه مهدود القوى، ولكنه كان يقاوم ويكافح ويمضى فى السير مجاهداً نفسه مغالبًا ضعفه، يأمل فى كل ليلة أن يطلع عليه الصباح بالعافية، فيصبح أكثر ضعفاً بعد ليل مؤرق وأليم. ثم امتنع عليه النوم ولازمته الرجفة، حتى بدا ضعفه لمن حوله واشتد جزع أصحابه عليه، وأشار بعضهم عليه بالراحة، ولكنه كان لا يزال يحمل على نفسه فى عناد، كأنه كان يخشى أن يتفلت منه الأمل الجديد الذى طلع عليه. بل لقد بلغ الجزع من بعض أصحابه أن تطيروا بالحلة الحريرية التى بعث بها قيصر إليه، فإنه منذ لبسها فى ذلك اليوم المشهود، والمرض يعادوه حتى تمكن منه ولصق به وأنشب فيه أظافره. وأشار عليه بعضهم فى صراحة أن يخلعها ويتخفف منها، وهمس له صديق كان أوثقهم به مودة: إن هدايا الملوك قد تحمل فى ثنايا خملها الناعم برائن الموت الفاتك، وقال له يحذره: «ألم تعلم بأنك كنت مع حنا عدو الملكة المخيفة؟ أنسييت أن كلمتك هى التى جرت على صاحبك غضب الملكة ونقمتها؟ إن احتيال المكلة فى انتقامها لا يقف بونه حائل».

ولكنه كان كلما سمع ذلك القول تبسم وأبى أن يخلع عن جسمه آية مجده وشارة عزه. ومضى فى السير يكتم الألم ويتظاهر بالقوة وهو فى قرارة نفسه يحس فزعاً شديداً من دبيب المرض الوئيد فى مجارى حياته.

لقد ضرب فى الأرض مجاهدًا تصارييف الأقدار حتى بلغ القسطنطينية لكى يصل إلى قصده الذى وقف عليه كل أملة. وقد قاسى عنت الأقدار وعصف العواصف، وترامت به أمواج الحياة حتى بسم له الحظ بعد كل ذلك، فأصبح يسير على رأس كتيبة قوية يستطيع بها أن يهرب وأن يحارب وأن يفوز. أتكون الأقدار قد عزمت على لعبة من لعبها القاسية التى تعودت أن تسخر بها منه؟ أتكون قد أرادت أن تجعل من ذلك التوفيق الذى أحرزه أحبولة جديدة تثير بها آماله، حتى إذا ما اطمأن إليها وذاق حلوتها نزعتها من يده ضاحكة منه ساخرة من آماله ومن حرارة رغبته؟ وقد زعر أيما زعر عندما رأى فى جسمه ذات صباح تلك القرحة التى كانت قد أصابته من قبل فى قسطنطينية تنتشر وتلتهب. أتكون الأقدار قد سلطت عليه تلك القرحة الصغيرة لتحول بينه وبين أملة؟ ماذا تستحق هذه الحياة إذا لو اضطر إلى أن يستسلم ويرى آماله تتفلت من يده كما تتفلت الأشعة من بين الأصابع؟

بعد حين بلغ الجيش قلب الأرض واعتلى الجبل وبدأ السير فى الهضبة العالية الجرداء عند قرية (أنقرة)، فعزم القائد على الإقامة بالجيش أيامًا، حتى يستجم الجنود ويتلاحق آخر الجيش وأوليه، ويلقى نظرة على عدة الجيش ومؤونته قبل أن يبدأ السير الطويل إلى أرض فارس. وفرح امرؤ القيس لهذه الاستراحة مؤملا أن يستعيد قوته فى أثنائها، وأن يساعده الاستجمام على التخلص من المرض الذى كان يحس دبيبة يومًا بعد يوم.

وكانت تلك الأيام التى قضاها الجيش فى جوار أنقرة أيامًا صافية  
الهواء سنية الضياء، ذكرت امرأ القيس بأيامه التى كان يجول بها  
فى أرضه، وهو شاب يضرب فى الآفاق؛ فقد كانت السماء الزرقاء  
وقطع السحاب التى تتمشى فى أرجائها بين حين وآخر، والهواء  
الجاف الذى يبعث فى النفس نشوة، والأرض الفسيحة التى  
لا يحجب الأفق فيها إلا التلال والكتبان، كانت كل هذه تبعث فى  
نفسه ذكريات حياته وما فيها من لذات وآلام؛ كانت نفسه دائمة  
التحرك والجيشان حتى لقد كان لا يستطيع أن يمنع الدمع من  
أن يملأ عينيه أو يببل وجنتيه؛ بل لقد كان يجد فى تذريفه بعض  
الراحة بعد طول كده وسهره ومرضه. وقد أعجبه فيما حوله مكان  
قامت فيه شجيرات ملتفة، وحشائش منبثة، حول قبر مفرد،  
كأن تلسك الأرض قد حبته بعطفها وكرمها، وقصرت عليه وجودها  
وفنها فكان يكثر الذهاب إليه ويجد فى وحدة القبر وحنو الأغصان  
عليه معنى يثير ما فى قلبه من التعطش إلى الود والحب.

ورأى عند القبر عجزًا كانت تتردد عليه، وأنس إليها وأنست  
إليه؛ ولما طال ترده على المكان نشأت بينهما مودة، فكانت  
تفضى إليه ببعض الحديث عن قريتها وقومها، وعن تلال الأرض  
وزرعها وحيوانها، وكانت من قوم رعاة ينتجعون أقاصى التلال  
فى طلب الكأ، حتى إذا أقبل الشتاء عاد الرجال إلى القرية  
فيقيمون بها مدة البرد إلى أن يعود الدفء ويعتدل الهواء وينبت

الوسمى فينتشروا فى الأرض مرة أخرى فى طلب المراعى. ولهذا كان القوم خلوفًا، وكانت العجوز إحدى من بقى فى القرية من نساء ضعاف قلائل وصبية صغار. وكان امرؤ القيس يفهم حديثها المتقطع الهائم، ويجيبها بلغتها بلفظ متردد قصير، وكان أكبر ما أخذ بنفسه من أحاديث العجوز قصة ذلك القبر، وقصة صاحبتة وهى امرأة شابة من بنات قومها شهدت العجوز مأساتها، وبكت لفجيعتها وبقيت منذ قضت نحبها على عهدا من زيارة جدتها، واستدراى الرحمة عليه. كانت صاحبة القبر فى حياتها امرأة جميلة بارعة الحسن من بنات الأمراء فى العاصمة الكبرى قسطنطينية. وكانت آية فى صفاء القلب وطهارة الذيل إلى ما كذت عليه من روعة الحسن وسعة الغنى. وأحبها فتى من قومها جمع الشباب والجمال ورقة الحس، ورأت فيه ما أَلَّفَ قلبها وملاً نفسها، فوهبته حبها. ولكن العيون أصابتهما، فظننت فيه المرأة خيانة حبها، وانصرفت عازفة وباعدته فى فورة من فورات غضبها، ولم تقبل منه اعتذارًا، ولم ترض فى أمره معاودة. فانصرف الفتى عنها غاضبًا والتمس السلوى فى مباحج العاصمة ومسارح لهوها ومواخيرها، فذهب ماله وتحطم جسمه، ولكنه مع ذلك لم ينسها. فكان كلما رأى نفسه يهوى إلى درك أوغل يطلب دركًا بعده، يحاول أن يجد فيه ما يطلب من النسيان، حتى بلغ حالة لم يكن بعدها درك أبعد غورًا، فسار يطلب القفار يهيم فيها على وجهه، وقد ضل عقله ولا يزال يهذى

بها. وكانت هي قد عاودتها الرقة إليه بعد أول ثورتها، فكانت تود لو عاد إليها معتذراً فتقبل عذره ويستعيد حبها فتعيده إليه راضية، ولكنه لم يفعل. بل كان كلما رأى نفسه قد هوى وانحدر زاد مباحدة لها ويأساً منها ومحاربة لقلبه في التعلق بها.

وأنت الأخبار إلى الفتاة بما آل إليه أمر حبيبها، وبما بلغ من ضياع ماله وشروء لبه وهيامه وامتلاء قلبها المتكبر إشفاقاً عليه، وأحسنت أنها قد أجمت وأساءت؛ فقد كان في استطاعتها أن تردده إليها بالعفو، وأن تنزل هي عن كبريائها إذا لم ينزل هو عن كبريائه التي حطمته. فهجرت قومها ومالها، وتركت أرضها ومقامها، وسارت تطلب آثاره وتتعقب أخباره، ولا تزال يتغنى بذكرها. ولم تستطع أن تتحمل جهد عاطفتها الثائرة وكد أسفارها الملاحقة، فمرضت وماتت في أنقرة، وهي تبكي زلة الأقدار التي لم يملك أحد إقالتها.

وقعت هذه القصة في نفس امرئ القيس، ولم يملك أن ذهب خياله إلى فاطمة التي أحبها من كل قلبه، والتي لم يجد بعد كل ما أصاب من حياته وما أصابته في حياته، ما ينسيه ذكراها؛ وثارت في فكره ثورة من الخواطر؛ ماذا وجد في الحياة بعد أن تركته؟ أي سعادة كانت تتحقق له لو فاز بحبها وقربها؟ أين يا ترى تكون اليوم فاطمة؟ وهل هي تقاسى مثله هموم الحياة؟ فاطمة! فاطمة! فاطمة! لقد فاته إدراك معنى الحياة عند ما فاته حبها.

واختار امرؤ القيس المقام فى جوار هذا القبر كل يوم، إذا أصبح إلى أن يمسى، يجد فى تلك لذة لا يجدها فى موضع آخر. وقضى الجيش أسبوعين عند أنقرة ثم أمر القائد بالسير بعد أن اطمأن إلى أن كتائبه تامة وأن عدته، كاملة، وأخذ الجيش يتحرك، وأراد امرؤ القيس أن يقسو على نفسه فيجشمها مشقة السير، فكان الأمل ينهض به والرغبة تدفعه، ولكنه وجد نفسه لا يقوى على القيام، بل كان كلما هم يريد الوقوف على قدميه، ارتعش وخارت قواه واعتراه الدوار، وتهالك مرغماً لتلقاه أيدي من حوله حتى لا يقع. وكانت قرحته قد انتشرت وتزايدت يوماً بعد يوم، حتى عمت جسمه فلم تترك له مكاناً لجلوس ولا لضجعة. فأيقن أخيراً أنه عاجز عن المضى مع القوم، واضطر إلى أن يطيع أمر القائد (بلزارىوس) أن يبقى حيث هو مع بعض حراس يخدمونه ويعنون بأمره حتى يزول عنه مرضه، ويستطيع معاودة السير فيلحق بهم.

وما كان أقساه وقعاً على نفسه أن يرى كتيبته العزيزة ذات صباح تتحرك وفيها منافسه وعدوه الطماح، الذى حل محله على رأسها، وسار فى مكانه يقودها. فقد كان ذلك من ضرورات الحرب التى لا تجد فراغاً للتفكير فى مجاملة. ونظر امرؤ القيس فى آثار القوم وهم يسرون بأعدين عنه، صاعدين على جوانب التلال القريبة فى ثقاقل وبطء، ثم رآهم وهم

يهبطون من أعلاها مختفين شيئاً فشيئاً وراء خط الأفق المتموج ، ولم يملك عند ذلك دمعته المنحدرة وترك نفسه لأشجانه الثائرة. لقد سار الجيش إلى الشرق، وبقي هو وحده في تلك البقعة الموحشة لا يرى حوله إلا سهلاً جديباً لا نبت فيه ولا أهل.

لقد سار الطماح على رأس الكتيبة التي أعدها قيصر لتكون تحت أمره ليدرك بها ثأره. فيا للأقدار! تتأثره ولا تزال تقذف به مرة بعد مرة إلى الخذلان والخيبة، وهو كلما عثر بها نظر إليها فوجدها تضحك منه لا ترثى ولا تعطف، بل تبدى عن أنيابها في ابتسامة قاسية ساخرة.

تطاولت عليه مدة الإقامة في أنقرة وهو يؤمل أن يسعفه البرء لكي يلحق بالجيش، ولكن الأوجاع كانت لا تزال تتزايد به، حتى عجز عن القيام والسير ولم تخفف عنه آلامه إلا خدمة المرأة العجوز التي عرفتته عند القبر، فإنها منذ غاب عنها سألت عنه، حتى علمت باشتداد المرض عليه، فذهبت إليه ولزمت خيمته وأقبلت على تمريرة والعناية به في حنان فياض وصبر لا يتململ. فكانت تقضى عنده النهار لا تكاد تفارقه إلا أن تمضى إلى بعض شأنها، ثم تعود إلى إليه مسرعة متلهفة كأنها تسعى إلى وحيدها، فإذا ما جاء الليل واشتدت عليه وطأة الحمى قضت الليل إلى جواره ساهدة لا تكاد عينها تغمض إلا غرراً، وهي تعالجه بالأشربة والأدهان، وتنضح جبينه بالماء البارد أو تصب في أذنيه بعض العطور.

وفى ليلة من الليالى بعد شهر من ذلك المرض المتزايد لم يطق الصبر على فراشه مع ما كان فيه من ضعف، وتملكه ضيق شديد لم يستطع معه الاستقرار، فقام متحاملاً يتكئ على عصا، وهو يجزر رجلية ويسير فى بظه والألم ينفذ إلى قلبه ويصل إلى نخاع عظامه. وحاولت العجوز أن تمنعه عن هذه الحركة، فلم يطعها، ونزع نفسه من يديها فى شىء من الغلظة والعنف وسار هو يترنح متجهًا نحو القبر، فرآه الحراس القائمون على خدمته، فقاموا مسرعين إليه، وأسنده اثنان منهم من تحت إبطيه وسارا به حيث أراد فى صمت وخشية، والعجوز تسير فى آثارهم، حتى بلغوا القبر، فارتقى امرؤ القيس إلى جواره وهو ينهج ولا يكاد يبصر ما أمامه من الإعياء. ونظر إلى الحارسين من خلال العبرات التى تملأ عينيه، وسألهما أن يأتيا إليه بحلته التى بعثها إليه قيصر، فقد نسى أن يلبسها قبل أن يسير، فأسرع أحد الحارسين إلى الخيمة وأتى إليه بها فحاول القيام ليلبسها، ولكنه عجز وخر على الأرض خائر القوى، واصطدمت يده فى هذه الحركة العنيفة فأدمتها الصدمة، وأسرع الجنديان والعجوز إليه فجعلوا يربطون جرحه ويسوون عليه الحلة وهو ملقى على الأرض فى كرب شديد. وممرت فى ذهنه المحموم صور حياته يتلو بعضها بعضًا، حتى مرت به صورة الطماح إذ يسير على رأس الكتيبة صاعدًا على التل باعدًا عن أنقرة، وهو مقيم عاجز عن اللحاق به، فاشتد وجده وغلبه

الحزن وثارت شجونه حتى غلبه الدمع ، وجعل يتغنى فى نعمة  
حزينة فى أثناء هذا البكاء ، فقال وهو ينظر إلى أصحابه كأنه  
يحدثهم :

تأوَّبني دائي القديم فغلسا      وما كنت أخشى أن يعود فأنكسا  
فإما ترينى لا أغمض ساعة      من الليل إلا أن أكب فأنعسا  
فيارب مكروب كررت وراءه      وطاعنت عنه الخيل حتى تنفسا  
ويارب يوم قد أروح مرجلاً      حبيباً إلى البيض الكواعب أملسا  
وما خلت تبريح الحياة كما أرى      تضيق ذراعى أن أقوم فألبسا  
فلو أنها نفس تموت جميعة      ولكنها نفس تساقط أنفسا  
وبُدلت قرحاً دامياً بعد صحّة      لعل منايانا تحولن أبؤسا  
لقد طمح الطماح من بُعد أرضه      ليلبسنى من دائه ما تلبسا

ثم زادت به الحمى شدة حتى جعل يهذى ويضطرب وزحف  
على الأرض حتى بلغ جانب القبر فوضع يده على حجارته ، وقال  
يخاطبه وهو فى غيبوبة : «أنت هنا؟ لقد وجدتك بعد طوال تجوالى.  
فاطمة! لقد وجدتك».

ثم نظر إلى من حوله كأنه أفاق إلى نفسه ، فقال لهم : «أرى المزار  
قريباً ، إذا مت فادفنونى ها هنا».

ثم نظر إلى العجوز وقال متوسلاً : «لا تدفينى إلا ها هنا  
يا أماه».

ثم جعل يترنم فى أغنية حزينة وهو يضع يده على حجر  
القبر ويقول:

أجارتنا إن المزار قريب وانى مقيم ما أقام عسيب  
أجارتنا إنا غريبان ها هنا وكل غريب للغريب نسيب

ثم عادت إليه الغشبية، ورجع إلى الهذيان، وحاول القيام فى  
عنف وقسر، وجعل يقول فى شبه صيحة التحدى:

رب طعنة مسحنفره  
وجفنة مثعنجسه  
تبقى غداً بأنقسه

فأدركه الحراس ليحاولوا تهدئته، واقتربت منه العجوز مسرعة  
وهى تبكى تريد أن تهدد من ثورته، وهو يناضل ويجاهد، كأنه  
يصارع عدواً؛ وما هى إلا لحظات حتى ثقل جسمه فى أيديهم، ثم  
سكنت حركته وخمد.

ولم تنقطع العجوز عن زيارة القبر بعد ذلك، وكانت كلما زارته  
فى خشوع وحزن لم تنس أن تجعل من الأغصان أو الزهر طاقتين،  
تضع كل واحدة منهما عند رأس كل من الجارين المقيمين فيه.

\*\*\*